الباب السادس

الجار في حياة العرب وأدبهم

الفصل الأول : إكرام الجار

الفصل الثاني : حماية الجار

الفصل الأول

إكرام الجارِ

ـ إنَّ إكرامَ الجارِ لا يقفُ عندَ نوعٍ معينٍ من أنواعِ الإكرامِ ، لأنَّ هذهِ الأنواع تختلفُ باختلافِ الجيرانِ ، والمناسباتِ ، وحالةِ كل جار .

ـ ولإكرامِ الجارِ مكانةٌ بارزةٌ في آدابِ العرب ، وفي أشعارهم وأسمارهم ، لأنَّه يضفي خصلةً منْ خصائلِ المكارمِ إلىٰ حصائِلهم الأخلاقية التي يفخرون بها .

ـ وبلغَ بالعربِ منْ إكرامِ الجارِ ، أنْ أظهروا ضروباً من التَّضحيةِ في المال ، ويزعمون أنَّهم يهينون في سبيلِ إكرامِ جارهم ؛ ويضربُ حاتم الطائي مثلاً شروداً في هذا المجال الخصب فيقول :

إذا كانَ لي شيئانِ يا أمَّ مالكٍ فإنَّ لجاري منهما ما تخيّرا
وفي واحدٍ إنْ لم يكنْ غير واحدٍ أراهُ لـه أهـلاً إذا كـان مُقتـرا

ـ وبلغ منْ إكرام العرب جيرانهم أنَّهم خلطوهم بأنفسهم ، حتىٰ ينسىٰ الجار أنَّه غريبٌ[1] .

ولذلك لِعظمِ إكرامهم إياه ، ولاحتفائهم واحتفالهم به ، ورعايتهم إياه ، وتذكر علائم هذه المعاني في شعر يزيدِ بن حِمّان السّكوني الشيباني ، الذي يمدحُ قومه ، ويذكر مكانةَ الجار فيهم ، وإكرامهم إياه :

ومِنْ تكرُّمهم في المحْلِ أنَّهمُ لا يعلمُ الجارُ فيهم أنَّهُ الجارُ
حتَّىٰ يكونَ عزيزاً منْ نفوسهمُ أو أنْ يَبِيْنَ جميعاً وهو مختارُ
كأنَّهُ صدعٌ في رأسِ شاهقةٍ منْ دونهِ لعتاقِ الطَّيرِ أوكارُ

ـ ولعلَّ افتخارَ شعراءِ العربِ بإكرامِ الجار هو منىٰ

---

(١) وما أجمل قول الشاعر في هذا المجال وقد استخدم فنَّ المدح بما يشبه الذم :
ولا عيبَ فيهم غير أنَّ ضيوفهم تعابُ بنسيانِ الأحبّةِ والوطن

دنياهم ، ودنيا مناهم ، حيث تسيرُ الركبانُ بالحديثِ عنهم ، فهذا المثقب العبدي يحفظُ حقَّ الجارِ ، ويفخر بما يصنعُ فيقول :

أكـرِمُ الجـارَ وأرعـىٰ حقَّـه إنَّ عرفانَ الفتىٰ الحقّ كرم

ـ وأمّا سلامة بن جندل فإنَّه يرىٰ أنَّه وقومه مصدر سعادة الجار والضَّيف معاً ، وفي هذا المعنىٰ يقول :

قد يسعدُ الجارُ والضَّيفُ الغريبُ بنا والسَّائلونَ ونُغْلي مَيْسَر النِّيب[1]

ـ وإذا ما حلقنا مع شعر الأعشىٰ في أجواء الجار ، ألفيناه يوصي به خيراً ، ويقرر حقيقةً مفادُها أنَّ الجارَ لابدَّ راحلٌ ومنتقلٌ ، فليكنِ الإحسانُ إليهِ ما دام مجاوراً في القومِ ، وفي هذا يوصي فيقول :

والجارُ أوصيكمُ بالجارِ إنَّ له يوماً منَ الدَّهرِ يثنيهِ فينصرفُ[2]

---

(١) ديوان سلامة بن جندل (ص٢٢٧) .
(٢) ديوان الأعشىٰ (ص٣٥٩) .

ـ إنَّ ثمنَ إكرامِ الجار هو الذّكرُ الحسنُ ، والثَّناءُ الذي يسعىٰ إليهِ الكريم في حياته ، وبعد أن يصيرَ تحت التُّرابِ ، هذا ما وافانا به الشاعرُ عَبِيْد بن الأبرص حيث قال :

أشري البلادَ بحمدِ الجارِ أبذلهُ حتىٰ أصيرَ رميماً تحتَ ألواح[1]

ـ ويجعلُ لبيدُ بنُ ربيعةَ احترامَ الجارِ والوفاء بحقّه ديناً عظيماً يؤدّيه هو وقومه فيقول :

نـؤدّي العظيـمَ للجـوارِ ونَبْتنـي فعالاً وقَدْ ننكي العدوَّ المُسَاجلا[2]

ومن مظاهرِ إكرامِ الجار معاملتُه معاملةً رقيقة رفيقةً متوجة بلآلىء الحنان والدّفء ، وعن هذا المعنىٰ عبّر الأعشىٰ بقوله :

ولا تعدنَّ النَّاس ما لستَ منجزاً ولا تشتمن جاراً لطيفاً مصافيا[3]

---

(١) ديوانُ عبيد بن الأبرص (ص٥٥) .
(٢) ديوان لبيد بن ربيعة (ص٢٥٢) .
(٣) ديوان الأعشىٰ (ص٣٧٩) .

ـ ويفخرُ زهيرُ بنُ سلمىٰ بكفِّهِ الأذىٰ عنِ الجيرانِ فيقول :

وكفّي عن أذىٰ الجيرانِ نفسي وإعلاني لمن يبغي عَلاني[1]

ـ ويأتي مسكين الدّارمي فيما بعد ، ليعلنَ المشاركةَ التامة للجارِ ، حتىٰ في قوتِ اليومِ وطعام البيت ، وقد لا يرىٰ أنْ يكون هناك خصوصية له دون جاره ، فهما سواء فيما هو من حقّه كما أنَّه يرعىٰ حريم جاره فيقول :

ناري ونارُ الجارِ واحدةٌ وإليهِ قبلي تنزلُ القِدْرُ

ما ضرَّ جاراً لي أجاورهُ ألا يكونُ لِبابهِ ستْرُ

أعمىٰ إذا ما جارتي برزتْ حتىٰ يُغيِّبَ جارتي الخدرُ[2]

ـ ولو رحتُ أستقصي لكَ إكرامَ الجارِ في آداب العرب ، لطال بنا الطريق ، وحَسُن بنا الحديث ، ولكنا اكتفينا بقطف الثمر من ذلك السَّمَر ؛ لنسمو بأنفسنا إلىٰ مراتب الأدب والفضيلة .

---

(١) ديوان زهير (ص٣٤٩) .

(٢) ديوان مسكين الدارمي (ص ٤٥) .

ـ ويحسُنُ بنا أنْ نُوردَ ما جاءَ عنْ ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال : ثلاثةُ أخلاق كانت في الجاهلية مُسْتَحسنة ؛ والمسلمونَ أولىٰ بها :

أوّلها : لو نزلَ بهم ضيفٌ لاجتهدوا في برّه .

والثاني : لو كانت لواحدٍ منهم امرأة كبرت عنده ، لا يطلقها ، ويمسكها مخافةَ أنْ تضيعَ .

والثالث : إذا لَحِقَ بجارهم دَيْنٌ ، أو أصابه شدّةٌ أو جهد ، اجتهدوا حتىٰ يقضوا دينه ، وأخرجوه من تلك الشِّدَّة[1] .

ـ ومن محاسنِ الشّعر في هذا المجال قول أحمد بن علي الحرّاني :

والجارُ لا تذكُر كريمةَ بيتِهِ ... واغضبْ لكَلْبِ الجار إنْ هو أُغْضِبا

احفظْ أمانتَه وكنْ عزّاً له ... أبداً وعمّا ساءَه متجنّبا

---

(١) انظر كتاب : تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص ١٤٤) بتحقيق : يوسف علي بديوي . طبعة دار ابن كثير دمشق ط ٢ ١٩٩٥ م .

كـنْ ليّنـاً للجـارِ واحفـظْ حقَّـه كرماً ولا تكُ للمجاور عقربا[1]

ـ وأنشد الأصمعيُّ للمقنّع الكندي قوله :

أرىٰ دارَ جاري إنْ تغيَّبَ حقبةً عليَّ حراماً بعدَه إنْ دخلتُها
قليلٌ سؤالي جارتي عنْ شؤونها إذا غابَ ربُّ البيت عنها هجرتُها
أليسَ قبيحاً أنْ يُخَبَّر أنَّني إذا كانَ عنها شاحطَ الدار زرتُها[2]

* * *

(١) انظر : المنتقىٰ من مكارم الأخلاق للخرائطي (ص ٥٨ و ٥٩) .
(٢) المصدر السابق .

الفصل الثاني

حمايةُ الجارِ

ـ الأدبُ العربيُّ بحرٌ زاخرٌ بفضائل الآداب ، وآداب الفضائل ، ومنْ هاتيكم المكارم والآداب التي يزخر بها : الفخر بحماية الجار ؛ وعرفان حقّه وواجبه .

ـ ويعتبر العربُ أنَّ حمايةَ الجارِ مدعاةٌ للفخر ، يُرَدِّدُ ذلك في كلِّ نادٍ وواد ، وفي كلِّ مناسبة ، بل ودون مناسبة ؛ إذ الفضائل يجبُ أنْ تُنْشرَ في كل الأحايين والأوقات ، فالعربيُّ المُجير لا يَقْبلُ أنْ يُمَسَّ جاره بأدنىٰ أذىٰ ، فإذا حمىٰ جاره ، فسرعان ما ينتشرُ هذا الحدث انتشار النار في الهشيم ، فحمايةُ الجار تعني الإقدام والشجاعة والإيثار ، وقد تكون القبيلة كلُّها صفاً واحداً كأنَّها بنيانٌ مرصوصٌ في حماية الجار إذا

ما دعا الداعي لذلك ، وفي شِعْر حميد بن ثور الهلالي نجدُ فخره بقومه الذين يكون الجار عزيزاً لديهم ، فالجارُ آمنٌ وسطهم ، وبنو هلال ـ قوم حميد ـ عندما يعطون الجار عقد الجوار والحماية ، فإنهم يوفون بما عقدوا عليه ، وهم سببُ أمنهِ وأمانهِ ، وحتىٰ يؤكّدَ شجاعةَ عشيرته ، يشيرُ إلىٰ أنَّ جارهم لا يخاف الضَّيم وسط بيوتهم ، ولا يخشىٰ بطش أحدٍ ؛ فهم فوارس كرام ، جارهم يروحُ ويغدو بعقد وثيق ، وفي هذا يقول حميد :

متىٰ أدْعُ قومي يُجِبْ دعوتي ... فوارسُ هيجا كرامُ النَّسبْ

ترىٰ جارَهم آمناً وسطهم ... يروحُ بعقدٍ وثيق السَّبب

إذا ما عقدوا لـه ذمّةً ... شددنا العناجَ وعَقْدَ الكربْ[1]

ـ وأمّا عنترةُ بنُ شدَّاد ، فيربطُ بينَ عزَّة جارهِ ، وكرم نفسهِ ، فيقول :

---

(١) ديوان حميد بن ثور الهلالي (ص ٤٦) ؛ تحقيق عبد العزيز الميمني ط ١ ١٩٥١ م ـ دار الكتب المصرية .

وإنّـي عـزيـزُ الجـارِ فـي كـلّ وأكرمُ نفسي أنْ يهونَ مقامي[1]

ـ ويجمعُ عنترة لنفسه خصالاً كثيرة في محافظته علىٰ الجار ، ولعلَّ أشعاره تفصحُ عنْ فخره في هذا المضمار ، ومن ذلك حمايته للجار ، وفرحه بالضَّيف المقيم ، فيقول :

وإنّي لأحمي الجارَ من كلِّ ذلَّةٍ وأفرحُ بالضَّيفِ المقيمِ وأبهجُ[2]

ـ وإذا ما مات عنترة ، فإنَّ جيرانَه سيلقون ـ ولا شكَّ ـ الهوانَ والذُّلَّ بعد موته ؛ ففي إحدى فرائدِ أبياته منْ قصائده ، يعبِّرُ عنْ ذلك فيقول :

فوا ذلّ جيراني إذا غبتُ عنهمُ وطالَ المدىٰ ماذا يلاقونَ مِنْ بعدي[3]

ـ ويقول أيضاً معبّراً بأنَّ جارَه عزيزٌ في جواره ، وأنَّ عدوَّه ذليلٌ نادمٌ :

---

(١) ديوان عنترة (ص ١٦٥) بتحقيق كرم البستاني ـ بيروت ١٩٨٧ م .
(٢) ديوان عنترة (ص ٣٧) .
(٣) ديوان عنترة (ص ٦٢) .

ألا فليعشْ جاري عزيزاً وينثني عـدوّي ذليـلاً نـادماً يتحسَّرُ[1]

ـ ولعلَّ أبيات السَّموءل المشهورة في حمايةِ الجار ؛ تعطينا صورةً وضيئةً عن هذه المكرمة ، التي ازدانَ بها أدبنا العربي في القديم ، وهذه الأبيات من لاميته المشهورة في عالم الشِّعْر ، ومنها :

تعيّـرنـا أنّـا قليـلٌ عـديـدنـا فقلـتُ لهـا إنَّ الكـرامَ قليـلُ
ومـا ضـرّنـا أنّـا قليـلٌ وجـارنـا عـزيـزٌ وجـارُ الأكثـريـنَ ذليـلُ
لنـا جَبَـلٌ يحتلُّـه مَـنْ نجيـره منيـعٌ يـردُّ الطّـرفَ وهـو كليـلُ
تسيلُ علىٰ حدِّ السيوفِ نفوسنا وليستْ علىٰ غيرِ السّيوفِ تسيلُ
إذا مـاتَ منّـا سيِّـدٌ قـام سيِّـدٌ قـؤولٌ لما قـالَ الـرجـالُ فعـولُ
وما أخمدتْ نارٌ لنا دون طارق ولا ذمَّنا في النَّازلين نزيلُ[2]

ـ ويقول السَّموءل أيضاً في حمايةِ الجار :

---

(١) ديوان عنترة (ص ٨٢) .

(٢) انظر : حماسة أبي تمام ؛ القصيدة رقم (١٥) ؛ وبعضهم يروي هذه القصيدة لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي .

فأحمي الجارَ في الجلّىٰ فيمسي عـزيـزاً لا يُـرامُ إذا حميـتُ

ـ ولطرفةَ بنِ العبد البَكْري مجالٌ رحبٌ في حماية الجار ، حيث يعتصمُ المستجيرُ بهم إذا ما أوىٰ إلىٰ هضبتهم فيقول :

لنا هضبةٌ لا يدخلُ الذُّلُّ وسطها ويأوي إليها المستجير فيُعْصَما

ـ إنَّ ما قرأناه مِنْ أدبٍ في حمايةِ الجار عند العرب ، ليؤكد علىٰ هذه الفضيلة التي أكّدها الإسلام ، وشدَّ علىٰ أيدي النَّاس في نموها .

ـ ولعلَّ الخنساءَ في رثائِها لأخويها ، تتخذُ منْ حمايةِ الجارِ سُلَّماً تصعد فيه إلىٰ المجد ؛ لتحكي هذه المنقبة لهما كقولها :

وهـم منعـوا جـارهـم والنِّسـاء يخفرُ أحشاءها الخوف خفرا

ـ وتذكرُ أخاها معاويةَ المشهور بحماية الجار فتقول :

وجـارك محفـوظٌ منيـعٌ بنجـوةٍ منَ الضّيم لا يؤذىٰ ولا يتذللُ

ـ ولم يكن أخاها يحمي الجار فحسب ، وإنما الضيف ، والنُّزَّل أيضاً :

يُحامي عن الحيِّ يوم الحفا ظِ والجارِ والضَّيفِ والنُّزَّل

ـ ويؤكد عَبِيْد بنُ الأبرص حماية الجار فيقول :

نحمي حقيقتنا ونمنع جارنا ونلفُّ بين أرامل الأيتام

ـ وأما زهيرُ بنُ أبي سلمىٰ فيصف ممدوحيه بأنَّهم يحمون الجار ، فيقول :

المانعُ الجارَ يومَ الرّوعِ قد علموا وذو الفضول بلا مَنٍّ ولا كَدَر

ـ ويشاركُ الحطيئةُ في الثَّناء علىٰ هذه المكرمة فيقول مادحاً أيضاً :

الموثقونَ لجارِ البيتِ إنْ عقدوا ومنهم سابقُ الجلَّىٰ وداعيها

ـ ويخلِّدُ المتوكلُ الليثي هذه المكرمة ، فيتحدث عن حماية الجار وعزّته ، وها هو يقول مادحاً أحدهم بحماية الجار :

يرىٰ للضَّيف والجيرانِ حقاً ويرعىٰ في صحابتهِ الذّماما

كأنَّ الجار حينَ يحلُّ فيهم على الشُّمّ البواذخِ من شماما

ـ إنَّ الذي يقضي حقَّ الجارِ يَعِشْ سيِّداً ، يستعذبُ الناسُ

ذِكره في كلِّ مجلسٍ وناد ، وعن هذا المعنىٰ عبَّر الشّافعي ـ رحمه الله ـ بقوله :

ومَنْ يقضِ حقَّ الجارِ بعد ابن عمّه وصاحبه الأدنىٰ علىٰ القرب والبعدِ
يعش سيّداً يستعذبُ الناسُ ذكره وإنْ نابه حقٌّ أتوهُ علىٰ قصدِ

ـ إنَّ هذه المآثر الحِسان تملأُ الصُّحف والأوراق ، وتندّي القلوب بما تحمله من خصائل الخير ، وموجبات المودّة ، فما أجمل مكارم الأخلاق وخصائل الفضائل!! .

* * *